مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (23) – العدد (02) (ديسمبر، 2022) -ص 113-124
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

التعايش في كنف إيتيقا الذات الفاعلةعند ألان تورين.

Coexistence in the confines of ethics active self by Alain Touraine.

حسيبة بن مراح*[1]، hassiba.benmerah@univ-alger2.dz
مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية، (جامعة الجزائر2)
عبد المجيد دهوم[2]، adahoum03@yahoo.fr

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2021-03-07	2022-03-27

ملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ضرورة وعي الذات الفاعلة بنفسها عند ألان تورين لتحقق القدرة على احتواء وتقبل الذوات المغايرة، وهذا يعني مغادرة الأنا إلى النحن، إنه الاعتراف والتفاعل داخل أفراد المجتمع مما يفتح مجالا للحبّ الذي يحيل إلى الانفتاح والانعتاق للآخر، وفتح فضاء للقاء الغير المختلف. وتوصلت الدراسة إلى أن الاعتراف حسب ألان تورين لا يمثل موقفا فقط، وإنما يمثل شكلا من أشكال التوافق الاجتماعي؛ من أجل تحقيق عيش مشترك مع ثقافات ومجتمعات بعيدة عن ثقافة الذات المنفتحة ومجتمعها من حيث الزمان والمكان، فالتواصل بين الثقافات ليس مجرد سعي إلى تحقيق التفاهم المتبادل ، بل هو السعي إلى تعيين موقع الآخر وموقعي أنا بالذات، هذا الاحترام والقبول بالغير يدل على النداء بمنح الحقوق الإنسانية الأساسية لكل ذات وأخرى مغايرة من خلال مبدأ التسامح الذي هو المفتاح الرئيس لحقوق الإنسان في التعددية الثقافية والسياسية والديمقراطية مما يحقق الاعتراف المباشر بكرامة الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الاعتراف؛ الآخر؛ الذات الفاعلة العيش المشترك؛ التسامح.

Abstract

This study aims at demonstrating the highlight the necessity of active self-awareness, so that it can accept the opposite selves according to Alain Touraine to achieve the so-called mutual recognition and interaction within society. The study found out that recognition is not only an attitude but rather a form of social harmony and coexistence between different cultures. As a result, communication between cultures don’taim only at achieving mutual understanding, but also to define the location of the other and my own location. This respect and acceptance of other indicates the call to grant basic human rights to each and every other trough the principle of tolerance, which is the main key to human right in order to achieve direct recognition of human dignity.

Keywords: Recognition; Other; Active self; Coexistence; Tolerance.

*المؤلف المراسل

مقدمة

عانت الإنسانية من الأحداث التي عرقلت حركتها في مسار التاريخ نتيجة التمركز حول العقلانية وما نتج عنها من الحروب والتشتت الذي ساد العالم خاصة في القرن العشرين، فقد سار التاريخ بالبشرية نحو الضياع والشقاء في خضم هذه المأساة والدمار الذي لحق بها، وبخاصة التهميش الذي تأثرت من خلاله العلاقة بين الذوات البشرية وأصبحت في وضعها البائس حيث أصبح الإنسان في مسرح يملؤه العنف والخوف الذي يدمر نفسيته ويجعله قيد الوضع المعيش.

ولكن الأوضاع تغيرت بتشكل الوعي، بحيث تمردت هذه البشرية على واقعها المأساوي وحاولت كسر قيودها بعيدا عن كل الإيديولوجيات ونظريات التنميط الأحادي المعمم والمعولم والتمتع بالعيش المشترك ضمن عالم يملؤه التآلف والتجانس أي العيش في سلام، وهذا ما نادى به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط Immanuel Kant(1804- 1724) في مشروعه السلام الدائم حيث تكمن قدرة الإنسان على تغيير اجتماعه الطبيعي إلى اجتماع واع ومعقلن، ويضمن العيش بين الذوات المختلفة التي تحقق الاحتكاك بين الثقافات والذهنيات المغايرة بعيدا عن النزاعات التي تؤدي للتنافر بين الذات والآخر .

إذ تمخضت هذه الإشكالية عند الكثير من الفلاسفة في العصر الحديث وصولا إلى الفترة المعاصرة مع عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي ألان تورين (/-1925)Alain Touraine الذي يرى أن الأمر يتعلق بكفاءة التأصيل القوي لمبدأ التواصل و التعايش المنبثقين في الاعتراف بالمواقف والآراء، فالانتقال كان من الذات إلى التقنية، ومن التقنية إلى الذات، ومن الذات إلى الآخر، الأمر الذي يدفعنا إلى وضع رهان رابع في ظل هذه القضايا الثلاث وهو رهان الوصل الذي يكون بين الذات والغير وهو التعايش، ومن هنا نتساءل عن مكانة الذات والآخر عند ألان تورين، كيف يمكن القول بالتقارب والعيش المشترك في ظل التعددية الثقافية بمعنى آخر أي ذات لها أن تحقق هذا التواصل والتعايش؟.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ كونه الأنسب لمثل هذه مواضيع، فقد حللنا من خلاله رؤية ألان تورين في عيش مشترك في هذا الكون ضمن بناء مجتمع قائم على التعددية الثقافية، واحترام جل حقوق الغير سواء كانت سياسية أو اجتماعية مما يحيل إلى الانتقال إلى فضاء تشاركي تحفظ فيه الذات ذاتيتها من خلال الغير الذي يؤكد على أنطلوجيتها، ولتوضيح هذه الأهداف اعتمدنا على مجموعة من مصادر تورين المهمة في هذا الطرح: كتاب نقد الحداثة، كتاب براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، ما الديمقراطية؟، Le nouveau siècle politique، Penser autrement ....

أولا: الاعتراف بالذوات المغـــــايرة لذواتنـــا

لقد كان الإنسان مقياس الأشياء جميعا homme est mesure de toute choses حسب ما نص عليه السفسطائيون لتكون معهم البداية الأولى لنشأة المذهب الإنساني (Humanis)، ويليهم بعد ذلك دعوة سقراط socrateللبحث عن حقيقة الإنسان من خلال الكشف عن ذاته ويتجلى ذلك في قوله:

" إعرف نفسك بنفسك"، إذ لم تبق هذه الدعوة حبيسة هنا، وإنما أخذت الذات في تمفصلات جديدة متلاطمة بين أفكار الفلاسفة عبر العصور.

فقد بلغت الذات قمتها في العصر الحديث مع رونيه ديكارت René Descartes (1650/1596) منطلقا من الكوجيطو cogito " أنا أفكر إذن أنا موجود" "je pense donc je suis، لتصبح الريادة للإنسان وعقله وتكون الذات أساس كل نمط فكري متفتح يزيل السحر عن العالم désenchantement) (dumonde بلغة ماكس فيبر Max wiber(1920 -1864) وتنتقل عبر الجسر النقدي الكانطيImmanuel Kant(1804/1724) من خلال المقولات، لتتوج الذات وتتأسس مع فلسفات لاحقة كالفينومونولوجيا(Phénoménalisme) والوجودية (Existentialisme) والشخصانية (Personnalisme)، لتصبح ذاتا تبحث عن معناها التاريخي مع هيغل.

إلا أن هذه الذات اصطدمت بارتكاسية فلاسفة الثالوث (ماركس و نيتشه وفرويد) ليسقطوها من التعالي (transcendance) والقدسية والنرجسية (narcissisme) التي حلّت بها، فالإنسان مع ماركس مغترب تحت سيطرة التقنية ليفقد براءة ذاتيته، و يأتي نيتشه ليزحزح مركزية الذات بموت الإنسان الذي يتحلى برواسب إلهية من خلال إعلانه عن موت الإله (mort de dieu)لاعتباره حشدا من القيم الزائفة واعتبار أن العصر الحديث عصر انحطاط. يقول نيتشه: "البشرية لا تمثل تطورا نحو الأفضل أو نحو الأكثر قوة أو نحو الأرفع بالطريقة التي نعتقد اليوم، ولعل فكرة الترقي فكرة حديثة، بمعنى فكرة خاطئة"(نيتشه، د.س، صفحة 27)، امتدادا إلى فرويد الذي أحدث شرخا سيكولوجيا فضيعا منتقدا الوعي ليكشف أكذوبته و يزيل أقنعة الذات الديكارتية التي تنصّ على أن الوعي والشعور شيء واحد. يقول فرويد: " إن التحليل النفسي لا يمكنه أن يقبل الرأي الذي يذهب إلى أن الشعور هو أساس الحياة النفسية، وإنما هو مضطر إلى اعتبار الشعور كخاصية واحدة للحياة النفسية، وقد توجد هذه الخاصية مع الخصائص الأخرى للحياة النفسية أو قد لا توجد "(فرويد، 1988، صفحة 25).

إن البحث عن الذات في إطار وجودها وغيابها أو قبولها وتفنيدها بحكم أنها لصيقة بالفرد، هذا الأخير لم يبق وحيدا متخبطا في صراع داخلي، فقد دمجت الحداثة مفهوم الفردية في إطار الجماعة، ليصبح بذلك الفرد فاعلا في الحياة الاجتماعية، إثر التصادم الجامح بن المجتمعات وميلاد فكرة الوحدة وطغيان السلطة بكل أوجهها السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية المتمثلة في ظهور حركات اجتماعية تدعو إلى البحث عن حقوق الإنسان والإشادة بها، هذا النشاط التحرري إن صح التعبير يدفع إلى تكوين فرد يطالب بحقوقه في إطار الجماعة، ولكنه لا يعيها.

من هذا المنطلق يتطابق هذا التعريف للفرد مع مفهوم التذويت التي هي انصهار الذات داخل الجماعة بحيث تكون جلّ الأفكار العلمية والعملية محددة في إطار واحد ألا وهو البحث عن الفردانية (individualité)أو الذاتية (soi)في العالم، ورغم اختلاف الأسماء إلا أن الهدف واحد، وهذا ما لحظناه منذ بداية القرن التاسع عشر، فكل الأفكار الفلسفية التي كانت تصبّ داخل البحث عن الذات بما تحمله الكلمة من معنى، أي ذات موجودة قادرة ومغيرة، لكنها لا تؤمن إلا بالسلطة والتملك والحرية، لتحطّ هذه الأخيرة رحالها في الفلسفة الوجودية، وبالضبط عند جان بول سارتر، فحسبه الإنسان ليس حرا، بل هو الحرية، وهو الذي يحدد ويختار لنفسه ما يريده ويراه صائبا أو خاطئا. يقول سارتر: "إننا نعني أن الإنسان يوجد أولا ثم يتعرف إلى نفسه ويحتك بالعالم الخارجي، فتكون له صفاته و يختار لنفسه أشياء هي التي

تحدده"(سارتر، 1964، صفحة 14)، هذا الاحتكاك الذي تحدث عنه سارتر هو مجرد ملامسة للواقع المعيش؛ أي أن الإنسان فرد حرّ لا تستوقفه أي سلطة ولا ينصاع لأي من قوانينها، هو خلق لذات فردية وليست ذات فاعلة.

من خلال هذه الكرونولوجيا التحليلية يتضح لنا أن الذات الفاعلة هي الركيزة الأساسية في فكر ألان تورين، إذ ميَز بين الحدود الثلاثة ألا وهي: الفرد، والذات الفاعلة(Sujet) والفاعل(Acteur)، فبالنسبة لمفهوم الفرد، حدده بخاصية الوحدة الممتزج فيها كل المعايير الإنسانية. يقول تورين: " ليس الفرد سوى الوحدة الخاصة حيث تمتزج الحياة والفكر والتجربة والوعي "(تورين، نقد الحداثة، 1997، صفحة 213)من هنا تتضح صورة الفرد بحيث يقدم لنا العريضة الأساسية التي تتكون منها الذات بعامة بما أنها مجموعة من الحالات المندمجة فيما بينها، لكن هذا الفرد يمتاز عند ألان تورين بالمحدودية رغم أنه في إطار الجماعة أو حتى يمكن القول إنه يبحث عن حياة فردية خاصة به داخل الجماعة، أو بعبارة أخرى لا يهتم بوجود الجماعة في حين تحصله على الحقوق الطبيعية والمدنية.

أما الذات الفاعلة (sujet) فهي محور التفكير الفلسفي عند ألان تورين والتي تمر بعدة مراحل من أنا الكوجيطو الديكارتي -هنا تمتاز بالوعي والإدراك العقلي لما حولها- إلى مرحلة الأنا (moi)الفرويدية التي تنتقل من الهو(id) إلى الأنا الأعلى (superego) المتحكمة فيه مرورا بمفهوم الأنا (moi)وحدها، وهذا ما تمتاز به الذات الفاعلة (sujet). يقول ألان تورين: "هي الانتقال من الهو إلى ضمير المتكلم المفرد وهي الرقابة الممارسة على المعاش لكي يكتسب معنى شخصي"(تورين، نقد الحداثة، 1997، صفحة 213)، هذه الرقابة هدفها التحول بالفرد من فردانيته إلى فاعل ينصهر في الجماعة مع العمل على تغييرها، وليس الذوبان في الجماعة والانصياع لكل القوانين الجائرة في حق الذات الخيرة المريدة الساعية للعمل على التغيير بشكل إيجابي.

وهنا يدخل مفهوم الفاعل(acteur) الذي لا يكتفي بالتعايش مع الجماعة، وإنما يعمل على تعديل وتغيير هذه الأخيرة، بدلا من ذلك يمكن القول بأن الذات الفاعلة مازالت في طور تكوينها، فمن ناحية تبحث عن ذاتيتها ومن ناحية أخرى يستوجب عليها الانخراط في الكتل الجماعية للبحث عن عرقيتها وحقوقها، فحسب تورين يجب "أن تؤكد الذات نفسها باعترافها بالآخر كذات"(تورين، نقد الحداثة، 1997، صفحة 298)، فهذه الذات (sujet) التي يريد أن يصل إليها ألان تورين ذات محاربة، ذات فاعلة مغيرة في مجتمع تتقبل فيه ذوات أخرى مغايرة؛ لأنها تسعى هي الأخرى لأن تكون فاعلة ومغيرة.

باعتبار أن مصير الشخص لا يكون إلا داخل الجماعة وهذا هو الانتقال الحاسم من الأنا (moi) إلى النحن(nous)، فالذات تتأكد من خلال العلاقات بين الأشخاص بالاعتراف والتقبل و تتحول إلى عالم متعدد ومختلف، فالآخر يلعب دورا مهما في تكوين الذات و إعادة تأسيسها بشكل راق وبسيط؛ إذ يظهر هنا الآخر المتجذر في صميم الذات، وهذا ما تؤكده جوديث بتلر من خلال قولها: "فأنا أنخرط في علاقتي مع الآخر الذي أتحدث أمامه ومعه، وبالتالي أولد بوصفي وجودا انعكاسيا في سياق تأسيس وصف سردي لنفسي عندما يكلمني أحد ما، وأنا مدفوعة إلى مخاطبة الشخص الذي يتوجه لي بالخطاب"(بتلر، 2014، صفحة 55)، فالصورة الأنطولوجية للذات لا تكتمل إلا مع الآخر الذي يمنحني القوة للتغيير والتجديد.

فموضوع الوجود من أجل الآخر أخذ في القطيعة مع هوس الشمول في الماركسية إلى الانضمام إلى فيلسوف الغيرية الأول إيمانويل ليفيناس (Emmanuelle vinas) أي الاعتراف بالآخر؛ لأن احترام الآخر هو الشرط الأول للعدالة وبالتالي للتحرر، إذ يصور ليفيناس الآخر كالوجه أدرك من خلاله أنا المتناهي مسؤوليتي. فقد " تعلم ليفيناس من إدموندهوسرل أن الوعي هو دائما وعي بشيء: يضيف ليفيناس وبشخص"(تورين، نقد الحداثة، 1997، صفحة 298)، يتبين لنا كيف تشكل الذات نفسها عبر الاعتراف بالآخر، فيجدر بنا هنا أن نقول باحترام الآخر؛ لأن تهميشه يعود بالسلب على ذواتنا.

وعلى هذا الأساس، فالذات التورينية هي تلك القدرة الكامنة في الذات كطبيعة فردية للانتقال إلى ذات قادرة على الفعل، حيث يقوم هذا الفعل على فهم الواقع والآخر (l'autre)بصورة دقيقة، مع العلم أن هذا المجتمع المتكامل بصيغة دوركايم هو في الحقيقة مجتمع جاء على أنقاض ذات الحقّ وليست ذات الفعل.

و عليه "إن الذات الفاعلة التي لطالما أسقطها البشر فوقهم في فردوس أو مدينة حرة أو مجتمع عادل قد استقرت في كل فرد وصارت فيه تأكيدا لذات كصاحبة حقّ في أن تكون فردا قادرا على إثبات ذاته في مقابل ما يدمره من قوى شخصية"(تورين، 2011، صفحة 185)،من خلال هذه المقولة نعود تدريجيا إلى فكرة العقد الاجتماعي (Le Contrat social) التي خاض غمارها كل من لوك وروسو، وقد حددنا هذين الفيلسوفين لأنهما أشادا بفكرة حقوق الإنسان داخل الإطار الجماعي، وحددا فكرة التوفيق بين الحقوق الطبيعية و الحق السياسي دون الاندماج أو التوحيد.

توحيد عناصر الديمقراطية للحالة الإنسانية الثورية هو ما سمح بظهور ثقافة الاعتراف، ويقصد هنا الحقوق الطبيعية الأولى (العدالة والمساواة و الكرامة) وكيفية الاعتراف بتماثلاتها الاجتماعية بلغة ألان تورين ذات فاعلة لا تفقد هويتها في المجتمع، هنا يذهب مفكرنا إلى أن "فكرة صعود الفرد نحو نفسه كذات لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الاعتراف بالآخر كذات" (Touraine, Panser autrement,2007, p. 245)فبقبول الآخر كذات أستطيع أن أعترف بنفسي كذات، هكذا يريد أن يثبت ألان تورين ضرورة وجود الآخر والخروج من النرجسية narcissisme.ويلتقي في الفكرة نفسها مع بول ريكور " لا الآخرية تلغي الذاتية، ولا الذاتية تلغي الآخرية "(ريكور، 2008، صفحة 612)، بمعنى أن الآخر ينتمي إلى الذات، و بهذا فنحن نعترف بالآخر، فالذات فاعلية وعي وإرادة حاضرة.

الاعتراف(Reconnaissance) بالآخر يعيد بناء العلاقات الاجتماعية و الإنسانية حسب ألان تورين، و أن الذات الفاعلة تحقق ذاتيتها و فاعليتها عن طريق التفاعل بين أفراد المجتمع إلى أن تصل إلى عملية التذاوت، وهذا ما أكده أكسل هونيث(Axel honneth(/-1949)أن تحقيق الذات يتأسس بالاعتراف المتبادل بين الناس " ضمن ثلاثة أشكال أساسية الحب(l'amour)، الحق(le droit) ، التضامن la) solidarité)"(بومنير، 2010، صفحة 108)، إنها الطريق لبناء علاقات اجتماعية يكون فيها تبادل الاعتراف من سمات الذات المتجسدة والمتحققة في كل فرد "يتبين من هذا أن هذه الأشكال الثلاثة للاعتراف، أي الحب الذي يحقق الثقة بالنفس والحق الذي يحقق احترام الذات، وأخيرا التضامن، أنها شروط أساسية لتقدير الذات، بل هي التي تحدد من الناحية الأخلاقية جملة التطلعات الأساسية المشروعة داخل نسيج العلاقات الاجتماعية"(بومنير، أكسيل هونيث فيلسوف الاعتراف، صفحة 65).

فالاعتراف عند هونيث يمثل دورا كبيرا في تشكيل الهوية الإنسانية، وقد اعتبره تشارلز تايلور بأنه ضرورة إنسانية جوهرية لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها، فليس للفرد أو الجماعة هوية دون الاعتراف بالآخر (l'autre)، فللاعتراف أهمية كبيرة لاكتساب احترام الذات le (respect de soi) من خلال الاحترام المتبادل بين الأفراد الذي يساوي بينهم دون أدنى فرق، هذا الاحترام يخلق ما يسمى بالحب والانفتاح والانعتاق للآخر، و كل هذا قصد التخفيف من المعاناة و الظلم الاجتماعي والسياسي واللامساواة وكل أشكال الاحتقار والازدراء التي يمكن أن تلحق بشخصية الإنسان.

هذا الحب (l'amour) الذي يمثل مساحة ظهور وتلاقي الذوات المغايرة دون تعسف أو إكراه، كما لا يمكن اختزاله حسب ألان تورين. يقول: "يعرف هذا الحبّ في فض الاشتباك، وفي النداء المتبادل للرغبات ولقاء الآخر"(تورين، 2000، صفحة 297)، وبقدر ما هو خبرة للذات، فإنها تكشف عن نفسها باعترافها بالآخر كرغبة وكذات، فظاهرة الحبّ هذه تعبير عن كينونة الذات، كما تعني أيضا المساحة الآمنة التي تتحرر فيها الذات من القيود، وتعبر كل الحواجز لتعبر عن نفسها، وفتح المجال للذوات الأخرى للتعبير عن هذه الكينونة المتجذرة فينا، إنها أحد أشكال الاعتراف بالآخر، فإدراك الاعتراف بالآخر كذات هو الاعتراف بالقدرة العالمية على خلق ذوات حسب أكسل هونيث، هذا يعني الخروج من العزلة والدوغمائية إلى حياة يملؤها الانخراط في الجماعة، وفتح مجال للمحبة والصداقة وكل ما يستحقه الآخر الذي يحترم تواجدي وكل ما يتعلق بي.

كما يؤكد ألان تورين أن الاعتراف بالذوات المغايرة هو احترام لكرامتهم؛ لأن "الكرامة الإنسانية تعد واحدة من المؤشرات التي يمكننا من خلالها شرح وتحديد فكرة الحقوق الإنسانية " (Touraine, 2018, p. 146) فأخلاقيا نؤصّل لوجود الخير باعترافنا بحقوق الآخر و التزاماته، لا باعتراف وجود الآخر فقط، فالاعتراف بحقوق الآخر الإنسانية هي اعتراف الكائن بنفسه كائنا إنسانيا، وبأن عليه التزامات تجاه نفسه و لذلك فإن الحياة المعيشة حسب ألان تورين لا تتم بالغطرسة، وإنما بالإيمان المتبادل بالوجود المغاير، وأنه من الاستحالة أن تنتج الذات نفسها، بل إلا من خلال فعلها الذي يقدم لها ماهيتها و يبين صورتها للآخرين فتتجلى كرامتها، فترتبط الذات بالوعي وتخرج في مواجهة العوائق دون خوف، وهذا كله أصبح من صور الذات بركيزتها الأساسية ألا وهي المدركات الواعية، و بهذا تستطيع أن توفق بين ما تريد هي كذات وما يريده الآخر كذات أخرى، و ما سيصنع هذا الثنائي في المجتمع من هذا البناء القائم على الاحترام.

فالإنسان لا يمكنه أن يبقى منعزلا ووحيدا في هذا العام، فهو بحاجة لتلبية حاجياته سواء أكانت خاصة أم عامة مما يفرض عليه التعامل مع غيره، إذ لا يمكنه إيجاد من يطابقه فكرا وإحساسا في الواقع الذي يعيش فيه لأنه إذا حصل ذلك سوف ينعدم التصادم والابتكار والاندفاع نحو الأفضل ويصبح هناك ركود، أو بمعنى آخر انعدام الحياة، هذا ما يحتم عليه قبول الآخر باختلافاته من أجل التواصل، كما يفتح التواصل مجالا واسعا لأجل بناء صرح من العلاقات واجتماعات ثقافية تحمل شعار المحبة و المساواة "فالتواصل ليس مجرد الاعتراف بالآخر، الاعتراف بثقافته و قيمه الأخلاقية أو تجربته الجمالية، إنما هو

الحوار معه أو معها، حوار مع الذي يقوم بشكل مغاير لما أفعله، بتنظيم التناسق بين العناصر التي يحدد ترابطها الشرط والفعل الإنسانيين"(تورين، 2000، صفحة 238).

فالذات تعي نفسها من خلال فتح فضاء للقاء الغير المختلف، فالانتماء للجماعة يفسح المجال للقاء المباشر قدر الإمكان مع الآخر. تقول جوديث بتلر في هذا الصدد: " أنا موجودة بمعنى مهم بالنسبة لك، وبفضل وجودك، إذا كنت قد خسرت شروط المخاطبة وإذا لم يكن لدي أنت أخاطبه، فقد خسرت نفسي، ولا يمكن للمرء الإحالة إلى "أنا" إلا في علاقة مع "أنت" : دونما أنت تصبح قصتي مستحيلة"(بتلر، 2014، صفحة 79)، بمعنى أن الآخر يمنحني وجودي، يمنحني القوة لإثبات وعيي وذاتي لأكون فاعلا حرا تجاه كل من تقبلني، فالآخر هو المرآة التي أرى من خلالها نفسي، فبغيابه أو عدمه يتلاشى وجودي.

ثـــــــانيا: التعايش في ظل الاختلاف والتعددية الثقافية

ينطلق ألان تورين من شـــعار مفاده "هيا نعيش مع اختلافاتنا "(Touraine, 2007, p. 45) تشـــريعا للتعددية، للاعتراف والتســـامح والانفتاح على الآخر اعترافا بثقافته المغايرة، فالنزعة نحو الاختلاف تعطي للثقافات المتعددة حق صـــنع حقيقتها الخاصـــة والدفاع عن ثقافتها وهويتها وفقا لمبادئ يجب الاعتراف بهويتها وخصـــوصـــيتها ومنطقها الداخلي، تعد التعددية الثقافية حقا؛ لأنها تندرج تحت مبدأ المجتمع المؤســـس على المواطنة، فما يجدر فعله هو إغناء الحياة العامة بتنوع الثقافات لا الانغلاق والتغطرس.

فألان تورين ينادي بمواطنة تقوم بالإجماع والحرية بضمان، وذلك عن طريق ضمان الحقوق السياسية والمدنية الأساسية لجميع الأفراد بغض النظر عن عضويتهم في المجتمع، فمنح مثل هذه الحقوق للأجانب لا تسبب فوضى بقدر ما تحمي الأقليات من غطرسة الأغلبية، فينتج الاعتراف والاحترام المتبادل بين الثقافات؛ ما يخلق الوحدة الثقافية ولا يلغي الثقافات الأخرى لضعف هيمنتها السياسية، مما يضمن استمرارية النظام السياسي، ويفتح آفاقا جديدة للتكيف رغم الاختلاف. والتباين يقول ألان تورين: "يبقى الاختيار ما بين مواطنية ضيقة تستبعد التعددية الثقافية ومواطنية أخرى أكثر انفتاحا تسعى إلى التوفيق بين وحدة الحداثة وتنوع التواريخ الثقافية، أدعو بطبيعة الحال إلى اختيار التصور المنفتح"(تورين، 2011، صفحة 305)، أي الدعوة إلى مواطنة متعددة الثقافات (La Citoyenneté multiculturelle)مصرحا بذلك رفضه للطائفية (communauté)التي تمس الحريات الفردية مما تعيق المواطنين من ممارسة حقوقهم السياسية بكل حرية، إلا أنه يؤكد بأن محاربة الطائفية التي تعترض المواطنة لا تحل المشكلة، هذا وقد ذهب ويل كيميلكا إلى الطرح نفسه وهو القبول والدعوة إلى هكذا طرح رغبة منه إلى التوضيح بأننا "إلى الحاجة للعثور على طرق التعايش العرقي"(كيميلكا، 2011، صفحة 24).

وعليه فألان تورين يرفض الاعتراض الذي يقره الجمهوريون في الحداثة السياسية الذي ينص على أنها تنشأ وتستمر بالقوة الذاتية ورفضها للأجانب والثقافات المختلفة، فالاختلافات الثقافية لا تقوض الديمقراطية، ولتخفيف حدة الخلافات عبر شبكة تواصلية ترتكز على أخلاقيات التواصل الحجاجي الذي يجب الاستناد عليه من أجل التصالح الذاتي الذي يروي "إقناع الآخر بالحجة والتكيف في ظل الاختلاف القائم دون أي تعصب، كما أن الخلاف كإطار فعّال يجب أن يقوي هذه النقاشات والتفاعلات الثقافية التي

من شأنها المساهمة في تطوير النظرية النقدية من خلال الاستراتيجية التي قدمها كل من كارل أوتو آبل ويورغن هابرماس في أخلاقيات النقاش الحجاجي داخل المجتمع"(برلين، 1993، صفحة 121)، فالتواصل الثقافي يحدد موقع كلا الطرفين بالنسبة للآخر، فالحقوق الثقافية تحمي شعوبا معينة من خلال الحقوق السياسية التي تمنح لكل المواطنين. ويعطينا ألان تورين مثالا عن المسلمين "من طبيعة الحقوق الثقافية أن تحمي شعوبا معينة تلك هي حال المسلمين الذين يطالبون بحق الصيام في شهر رمضان"(تورين، 2011، صفحة 251)، ويعلق ألان تورين على الأزمة التي أثارها لبس الحجاب في بعض ثانويات فرنسا فهذه الحقوق تجبر على الاعتراف مقابل التجريد والتهميش.

هذه الحقوق ستتحول إلى توتاليتارية (totalitarity)ما لم تجد حيزا داخل التنظيم الاجتماعي، وذلك من أجل خلق مواطنة (Citoyenneté) تزخر بالتنوع الداخلي للمجتمع، بإلغاء السيطرة والاستغلال ليصبح الأفراد منتجين قادرين على توحيد وخصوصية الهوية الشخصية والجماعية باعتبار أن الهوية هي الجوهر الأساسي لثقافة من الثقافات تتداخل فيها عدة عوامل متشابكة كونها ليست منظومة جاهزة، وإنما منفتحة على المستقبل من أجل الحفاظ على الذات الفردية والجماعية، "وتلك الحقوق الثقافية تكون أعمق من المواطنية (Citoyenneté والانتماء، وهذا ما نجده في الحركات النسوية –النسائية- في المطالبة بالحقوق السياسية أو المساواة الاقتصادية"(تورين، 2011، صفحة 253)والحق في الاختلاف قد أدى للانتقال من الحقوق السياسية إلى الحقوق الاجتماعية ثم إلى الحقوق الثقافية إلى توسيع المطالبة بالديمقراطية لضمان عيش مشترك.

فمبرر وجود الديمقراطية (démocratie) والعيش في فضاء مشترك هو الاعتراف بالآخر (l'autre) ويعود في ذلك ألان تورين إلى تشارلز تايلر(1931 -Charles Taylor) الذي صاغ سياسة الاعتراف "الاعتراف بالآخر ليس مجرد سلوك مهذب يجب انتهاجه وإنما هو حاجة إنسانية حيوية "(شنابر و باشولييه، 2016، صفحة 360) فألان تورين لا ينفي الآخر، وإنما يؤكد على ضرورة الاعتراف به؛ لأن كلا الطرفين يشتركان في الاستفسارات نفسها "الاعتراف بالآخر على أنه يحمل إجابة خصوصية تختلف عن إجابتي، على استفسارات مشتركة"(تورين، 2000، صفحة 248)،فنحن نعيش في عالم لا نستطيع الاختيار مع من نعيش فإذا حاولنا الاختيار نهدم حياتنا الاجتماعية وندمر الآخر.

وعليه فالمجموعات الثقافية التي تحتاج لحق ثقافي عليها أن تندرج ضمن ما يسمى بالتربية الديمقراطية التي تحفظ من خلالها الدولة نظامها، وهي بهذا تفتح المجال للانتماء لكل الثقافات والتي ينبغي أن تمنح –التربية الديمقراطية- هدفين اثنين أهميتهما متساوية "تنشئة العقل والقدرة على الفعل الديمقراطي من جهة، وتنمية الإبداعية الشخصية والاعتراف بالآخر من جهة أخرى"(تورين، 2000، صفحة 248)، يقصد ألان تورين الاعتراف بالآخر انفتاح على ثقافات ومجتمعات بعيدة عن ثقافته ومجتمعه سواء من حيث المكان أو الزمان؛ بغية إيجاد القوى الإبداعية لتلك الثقافات والمجتمعات، وإيجادها لذاتها عبر نماذج من المعرفة والعمل الاقتصادي والأخلاقي.

كما أن التعددية الثقافية (multiculturalisme) وسياسة الاعتراف (politique de la reconnaissance) تزدهران و تمارسان في المجال العمومي بلغة يورغن هابرماس (Jurgen

(Habermas مثلما أكد هذا الأخير الذي يعدّ المنظر الحقيقي للعلاقة بين الفضاء العمومي والديمقراطية فبالعقلانية التواصلية تنتظم عملية التفاعل والتذاوت بين أفراد المجتمع داخل الفضاء العمومي؛ قصد تأسيس مجتمع خال من الهيمنة أو السيطرة، هذا وقد سبقته في ذلك الفيلسوفة الألمانية حنا أرندت Hanna Arandt(1906_ 1975)التي تؤكد أنه لا وجود للحرية خارج هذا الغياب للفضاء العمومي ما دامت الحرية هي أساس هذا الفضاء "معجزة الحرية تتمثل في سلطة البداية، والتي بدورها تتمثل في الواقع أن كل إنسان بفعل ولادته، قدم إلى عالم يسبقه في الوجود وينتهي بعده، وتوجد فيه بداية جديدة"(أرندت، 2018، صفحة 31)، بما هو فضاء عمومي مشترك يتحقق فيه الالتقاء والإجماع والحرية بواسطة القول والفعل.

ومن هنا يوضح تورين السلوك الذي يجب اتخاذه حيال النازحين، بحيث لا يمكننا مطالبتهم بالانسلاخ من ذاتيتهم وثقافتهم، "أن هيا اعبروا عالمكم المنغلق إلى عالمنا المنفتح و ذلك كالطلب إليهم أن ينسلخوا عن ثقافتهم ليدخلوا وهم عراة إلى عالم جديد وغريب "(تورين، 2000، صفحة 243)وهنا يصف تورين هذا الأمر بالتهميش تجاه الثقافات المغايرة إذ يعطي البديل ويقول: "يجعل المهاجرين رعايا يعرفون كيف يقولون في آن معا هم و نحن وأنا: أن يجيدوا دمج موروثهم الثقافي و تطلعهم للمساهمة في إدارة فعل حرّ، فعل مسؤول وخلاق"(تورين، 2000، صفحة 243)، فلا يحق لأي مخلوق أن يهمش ثقافة أي قوم من الأقوام أو أي شخص في حد ذاته لأنه الازدراء بأم عينه، وللعيش ضمن الأمن والسلام لا بد من احتواء الغريب في ثقافتنا المغايرة عنه وتحقيق نوع من التعايش، فهذا ليس بالأمر العسير فهي تحتاج فقط لبعض الحب والتقبل، وحتى يكون التوافق والتفاعل بين المهاجرين (immégri) ناجحا يجب أن يحترم الآخرون هويتهم الثقافية، ويلقى قبولا حين يعترفون باختلافه، حينها يحس بالانتماء الجماعي والعيش المشترك؛ ولكي نضمن هذا التعايش لابد من توفر أمرين: التواصل (communication) بين هذه الذوات التي تزخر بثقافتها الخاصة والتسامح(la tolérance) فيما بينها لتكوين مجتمع متماسك رغم الاختلاف والتعدد الثقافي.

إذ يجدر بنا توضيح مسألة مهمة فيما يخص الالتقاء بين الثقافات، فهي لا تقوم إلا عن طريق التواصل فيما بينها مما يجعلها متلاحمة تحقق ما يسمى بالتبادل المختلف وهذا ما يؤكده تورين في قوله "فليس التواصل بين الثقافات مجرد سعي إلى تحقيق الفهم المتبادل، بل هو فعل معرفة يسعى إلى تعيين موقع الآخر وموقعي أنا بالذات ضمن مجموعات تاريخية معينة ومن سياق عمليات التغير والعلاقات مع السلطة "(تورين، 2011، صفحة 9)، فالثقافة تعدّ الوسيلة المثلى في الالتقاء مع الآخر، فهي إنجاز كمي مستمر تاريخيا، فبقدر ما تضيف من الجديد فهي تحافظ على القديم وتجدد قيمته الروحية والمعنوية، فالتواصل بين الثقافات هو الحوار بين الأفراد الغريبين و المختلفين داخل تلك الثقافات التي تسعى للتواصل من أجل عيش مشترك بحيث " إن التواصل بين الثقافات هو الحوار بين أفراد أو جماعات يلتقون / يلتقي عند المبادئ نفسها و يختلفون / تختلف على صعيد الخبرات التاريخية، مما يتيح لكل منهم / منها أن يتحدد / تتحدد بالنسبة للآخرين "(تورين، 2011، صفحة 9)فهذا الحوار يؤكد على وجودي للآخر كما يثبت لي وجوده.

ولأهمية الثقافة (la culture) ولضرورتها البالغة من منظور ألان تورين التي تعرف بها الأقليات(les minorités) أو المجتمعات نفسها لتحقق ذاتها في هذا الكون من خلالها ولهذا لا يمكن إنكارها، وفي الرأي نفسه يذهب يورغن هابرماس إلى القول: "تتطلب المجتمعات متعددة الثقافات سياسة الاعتراف بالآخر، إذ تدمج هوية أي مواطن مع الهوية الجماعية، وأن تستقر في منظومة من الاعتراف المتبادل يفسر اعتماد وجود الفرد على مجتمعات ذات تقاليد مشتركة وبناء هوية، والسبب وراء ذلك يكمن في عدم إمكانية ضمان التكامل للمواطن الشرعي دون حقوق ثقافية متكافئة في المجتمعات متعددة الثقافات"(هابرماس، 2002، صفحة 47)، مما يعني أن للثقافة دورا مهما في تفعيل التعايش بين الآخرين وذلك لما تحمله لمعنى الإنسانية (humanité).

ويؤكد تورين على الاحترام والقبول بالغير من خلال قوله: "أحترم الأديان والسلام والقانون والعدالة الاجتماعية، لأني أفهم الرجال قد خلقوا في كل مرحلة من تاريخهم تفسيرات مميزة لإبداعهم و التي أسسوا مجتمعاتهم وحضارتهم عليها"(Touraine, 2007, p. 180)، ليؤكد أهمية النداء بمنح الحقوق الإنسانية الأساسية لكل ذات وأخرى مغايرة من خلال مبدأ التسامح، فهذا الاحترام متأصل في الإنسان؛ كونه لا يمكن أن يفرض على الآخرين احترامه إذا لم يبادلهم به، وأن يكون هناك فضاء تشاركي يتضمن كل أشكال التعامل وفق المبادئ المفروضة من أجل تكوين ذات فاعلة تحقق فاعليتها ضمن مجتمع متسامح.

فالتسامح (la tolérance) هو مفتاح حقوق الإنسان في التعددية السياسية الثقافية الديمقراطية، فتطبيق التسامح يعني الاعتراف لكل واحد بحقه في اختيار معتقداته و آرائه وعدم فرض الرأي بالقوة والإكراه، هذا ما أكده تورين "حقوق الإنسان هي الاعتراف المباشر بكرامة الإنسان باعتباره خالق هذا العالم ومحوله وحتى مدمره"(Touraine, 2007, p. 181)،فهو يعني القبول بالآخر والتعامل معه على أسس العدالة والمساواة بصرف النظر عن أفكاره وقناعاته، فاللقاء يعني اعتراف الغالب بتفوق المغلوب عليه في المجالات التي تشكل هويته الثقافية، كالنصوص المقدسة وأحد التراثات الأدبية والموسيقية .
فالحياة الخيرة كما يقول بول ريكور (1913-2005)Paul Ricœur هي "استهداف للحياة الجيدة مع الآخر، ومن أجله في مؤسسات عادلة"(ريكور، 2008، صفحة 346)، فليس محكوما على الآخر أن يظل غريبا وعدوا في ظل هذا الاختلاف، بل هو الذي يحمل صفة القريب والأخ والصديق، فلا بد من التشريع للتعددية وكل ما يسمح بتحقيق التعارف بهدف العيش في فضاء تتحقق فيه الذات دون عنصرية، واحتواء الآخر ضمن فعاليات التغيير والتجديد، إنه الدين الحقيقي الذي يجب أن تتغنى به البشرية في الفترة الراهنة.

خاتمة ونتائج الدراسة

نخلص إلى أن التعايش في عالم واحد نشترك فيه يفرض على الذات(soi) أن تنفتح على الآخر (autre)؛ لأن الحياة الخيرة ماهي إلا تحقيق الألفة والمحبة مع ومن أجل الآخر ضمن عدالة تسمح بقوة الارتباط كالصداقة، والتضامن(solidarité) وكذا العمل على ترسيخ أرضية للتذاوت الكريم تتأسس من خلالها هوية إنسانية حقيقية.

فمن مقومات الذات الفاعلة (sujet) حسب ألان تورين الانتقال من مرحلة الحبamour الفردي إلى الاحترام الذاتي إلى التعايش الجمعي، بتعبير آخر اعتراف بالآخر (reconnaissese de l'autre) لا لوحدة كلية إنما فاعل (acteure) في هذه الوحدة، ليس بالضرورة كلنا نملك ذوات فاعلة تطالب بحقوقها لأن الذات التورينية هي ذات متأصلة واعية بحقها ومحترمة لحق الغير.

كما أن الاعتراف بالتنوع والاختلاف والتعددية الثقافية(multiculturalisme) التي ترى كل مجموعة أهميتها وتقديرها واحترامها في المجال العمومي كما نظر ألان تورين ويورغن هابرماس وأكسل هونيث واقع كوني يجب التعامل معه بوعي يحقق التعايش في ظل التنوع المتكامل مع التعدد والتعاون، إذ يجدر أن يغادر فكرنا من الأنا (moi) إلى النحن (nous)، ليتجه من الذات إلى الغير، حينها يسمح لنا الحديث عن جانب قيم الإنسانية جمعاء، وما يعزز هذا المبدأ هو التسامح، فلا تعايش دون انفتاح وتواصل؛ لأنهما بوابة التعايش.

يدعو ألان تورين إلى وعي الذات بحقيقتها، وذلك الاعتراف بفاعليتها التي تتحقق من خلالها كل شروط التواصل الثقافي والاعتراف بكل الذوات المغايرة في عالم يحكمه الاختلاف.

يؤكد تورين على حقيقة التعايش ضمن أخلاقيات الذات الفاعلة التي تضمن كرامة الإنسان وكل حقوقه الاجتماعية والسياسية بعيدا عن التعنيف الذي من شأنه أن يحط من شأن شخصيته الإنسانية.

قائمة المراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

ألان تورين. (1997). *نقد الحداثة*. (أنور مغيث، المترجمون) المجلس الأعلى للثقافة.

ألان تورين. (2000). *ماهي الديقراطية؟* (عبود كاسوحة، المترجمون) وزارة الثقافة.

ألان تورين. (2011). *براديغما جديدة لفهم عالم اليوم* (الإصدار 1). (جورج سليمان، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

إيزيا برلين. (1993). *نسيج الإنسان الفاسد*. (سمية نلو عبود، المترجمون) المغرب: دار الساقي.

بول ريكور. (2008). *الذات عينها كآخر* (الإصدار 1). (جورج زيناتي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

جان بول سارتر. (1964). *الوجودية مذهب إنساني*. (عبد المنعم الحنفي، المترجمون) القاهرة: الدار المصرية.

جوديث بتلر. (2014). *الذات تصف نفسها* (الإصدار 1). (فلاح رحيم، المترجمون) بيروت: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

حنة أرندت. (2018). *ما السياسة؟* (الإصدار 2). (زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، المترجمون) بيروت: منشورات ضفاف.

دومينيك شنابر، و كريستيان باشولييه. (2016). *ما المواطنة؟* (الإصدار 1). (سونيا محمود نجا، المترجمون) المركز القومي للترجمة.

فرويد سيغموند. (1988). *الأنا والهو* (الإصدار 5). (محمد عثمان نجاتي، المترجمون) بيروت: دار الشروق.

كمال بومنير. (2010). *النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث*. منشورات الاختلاف.

كمال بومنير. (بلا تاريخ). *أكسيل هونيث فيلسوف الاعتراف* (الإصدار 1). منتدى المعارف.

نيتشه فريديرك. (د.س). *عدو المسيح*. (جورج ميخائيل ديب، المترجمون) دار الحوار.

ويل كيميلكا. (2011). *أوديسا التعددية الثقافية، سبر السياسات الجديدة في التنوع* (الإصدار د ط). (إمام عبد الفتاح، المترجمون) الكويت: ج1، سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون.

يورغن هابرماس. (2002). *الحداثة وخطابها السياسي*. (جورج تامر، المترجمون) بيروت: دار النهار للنشر.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

Touraine, A. (2007). *Panser autrement*. Paris: Libirairie arthème fayard.

Touraine, A. (2018). *Défence de la modernité*. Paris: du seuil.